ومضات من قلب التـــــ

المدن اليمنية تنهض من تحت الـــ

قعطبة.. ثورة ذو حـــ

يظل للمكان سطوته في صياغة الاحداث والوقائع الجسام التي تصنع التغيير والتحولات العظيمة في حياة الأمم، وتسجيل اصدق المشاهد والحكايات والصور التي توقد للتاريخ مشاعل الخلود الأبدي في ذاكرة الأوطان والشعوب.

ومديرية قعطبة محافظة الضالع - مازالت وستظل - تحتفظ بالكثير من التفاصيل المهمة في سفر النضال الوطني الوحدوي التي تأصل حقيقة توارث عشق الإنسان الأزلي .. لليمن .. للثورة .. للوحدة .. عبر الأجيال والأزمنة

استطلاع وتصوير/ علي الشرجي

■ محسن الحلالي

■ محمد باهارون

■ صالح الهيام

مشاهد اللحظات الأولى لإنطلاق الثورة.. ومأساوية بقايا القهر القديم

كيف عاشت قعطبة بين عسرين.. نار الإمامة ونيران طيران الإستعمار

■ ،، لا يجعلك بعض الزحام وبعض الغبار ،، إن كنت منصفاً وعارفاً أنك تمضي في دروب مدنية مسكونة بالحلم والثورة والعنفوان، وذكريات الكفاح والصمود والإنتصار.

قعطبة .. همزة الوصل الحقيقية للثورة اليمنية الواحدة الموحدة.

قعطبة .. من هنا مرت ثورتان، وزخم نضالي ذو حدين.

قعطبة .. أي معنى تمتلكه اليوم .. أي ذكرى ستبوح بها!!

... «إنها أم المناضلين» .. التي عاشت العسرين في عهد الإمامة!!

أخرج إلى الشارع والأفكار تجول بي بعيداً .. لقد صارت مدينة واسعة آمنة دؤوبة يتسامقها البنيان ويشار إليها بالبنان .. لكن لا رغبة لي في التمتع أفضل من التجول بين جنبات تاريخ نضالاتها، وشجون الماضي بأحداثه المثيرة وبعض تفاصيله الغامضة!!

من ذا الذي يجرؤ على طمس حقائق التاريخ أو تجاهله؟!.

● قبل ٤٢ عاماً .. لم تكن تسير الأمور في مجاريها هنا - كسائر مناطق اليمن خلال ثلاثينيات وخمسينيات القرن الماضي رغم خصوصية المكان والحيثيات الشائكة.

كانت قعطبة مدينة صغيرة جداً خانقة ومتربة، تقع ضمن خط التماس الساخن بين صنعاء وعدن ... منازلها طينية إرتفاعها لا يتعدى طابقين .. في زقاق واحد كانت تغلي الحياة التجارية بفعل نشاط القوافل القادمة من المنطقة الحرة عدن، وتتكدس تحت السقائف حوانيت صغيرة، وبنايات كانت مقرات للحاكم والعامل وقائد حامية الإمام ودار ضيافته، وسجن مهيب كئيب طابقه الأسفل تحت الأرض. زائروه - عادة - الرعية المخلصون الذين يضخون لخزينة المملكة بعرق جبينهم فغمرتهم ببقايا قهر قديم.

كان للمدينة سور ترابي يضيق الخناق عليها، وأربع بوابات .. الجنوبية منها تسمى «بوابة السلام»!! تغلق جميعها مع رحيل شمس كل يوم .. حيث يسرع الساهرون إلى بيوتهم تحت صرخات العسكر .. أما عابري السبيل المتأخرين فلا يسمح لهم بدخول المدينة إلا بعد مباحثات وتحقيقات مطولة، وحين تسدل الظلمة الوحشية الحالكة - حسب قول ابن المدينة صالح محمد الهيام - يهدأ نهيق الحمير ورغي الجمال وثغاء ومأمأة الشاة والماعز المساقة إلى الحظائر حيث لا شيء يرى!! فقط أشباح تلوح مبهمة بلونها الأسود من كل الجهات.

كيف كانت ..

خلف سور المدينة بعض ثكنات عسكرية وموقع «مدفع رمضان» الذي كان رابضاً أعلى قمة «الجميمة» المطل عليها شمالاً إضافة إلى مدرسة يتيمة سميت بـ«الفتح الناصري» وهي واحدة من بين ثلاث مدارس على مستوى اليمن أنشأها الإمام في قعطبة بغرض استيعاب أبناء إمارات المحميات التابعة لعدن في محاولة لتحسين صورته عند أبناء المناطق الجنوبية ويلاصق المدرسة - غرب السور - صف بنايات تسمى «العرضي» أو الجمرك .. وهي الآن مواقع للمنشآت التعليمية الحديثة بالمدينة.

كما بني مقر المحكمة والنيابة العامة الابتدائية حاليا على أنقاض مقر عامل الإمام - حينذاك - وهو يتوسط السوق القديم بشكل دائرة وسط أزقة المدينة وحاراتها الضيقة ويتذكر العميد محسن الحلالي أنه وطلاب مدرسة الفتح «قبل الثورة» كانوا يذهبون بعد تادية صلاة الجمعة للتسليم على العامل - حينذاك - «علي بن محسن باشا» في ذلك المكان المشار إليه آنفاً ويتذكر - أيضاً - القنبلة زنة ألف رطل وهي مغطاة ببرميل بجوار المبنى نفسه وهي إحدى القنابل التي لم تنفجر أثناء قصف الطيران البريطاني لمدينة قعطبة وقراها الآمنة المسالمة والتي لا توجد فيها مدافع للعدوان، ولا مطارات للغارات ولا مصانع للأسلحة.

حدث ذلك في يومي ١٧، ١٨ شوال عام ١٣٧٧هـ الموافق ٦، ٧ مايو عام ١٩٥٨م.

وكان سلاح الطيران البريطاني قد ارتكب عدداً من الفضائح والمجازر خلال شهور مارس وأبريل ومايو من نفس العام شملت عدداً من المدن الحدودية مثل الضالع وقعطبة - تعز حتى وصلت ذمار وبريم .. حيث كانت تبدأ الطائرات تضرب المناطق الحدودية «المتنازع عليها» ثم تضرب العمق فيما بعد فتصل إلى الأماكن الواقعة على منتصف الطريق بين صنعاء وعدن .. وقد كان أكثر القتلى من النساء والشيوخ والأطفال حسب تقرير بعثة الأمم المتحدة التي زارت اليمن ومنها مدينة قعطبة عام ١٩٥٨م حصلت «الثورة» على بعض من هذا التقرير قي قعطبة.ويرجع الصحفي البريطاني «إيجار أوبالانس» «حادثة حدود عند قعطبة التي تشرف على حدود إمارة الضالع في يناير ١٩٥٧م أثناء وجوده مع مجموعة مكونة من عشرة صحفيين بريطانيين وأمريكيين بدعوة من الإمام أحمد - أدت إلى استشارة القوات العسكرية البريطانية بما في ذلك سلاح الطيران الملكي البريطاني».

وقال في كتابه «اليمن .. الثورة والحرب» (أنه كان لدى المراسلين الصحفيين وجهة نظر ثابتة حول معركة استمرت عدة ساعات كبدت كلاً من الجانبين قدراً من الذخيرة وحوالي ثلاثة أو أربعة قتلى) .. ومن المؤكد أن ذلك قد شجع على إحداث الكثير من القلاقل على طول الحدود بين قعطبة والمحمية حيث تشير المصادر التاريخية إلى وقوع سبعين حادثة خلال شهر فبراير عام ١٩٥٧م استخدمت في بعضها قوات المدفعية ومدافع المورتار.

وهكذا كانت قعطبة .. مدينة نصف مغمورة بالغبار .. بيوت عارية تحت انقاض قصف الطيران الوحشي .. كأنها كومة عظام نصفها رميم - كما أوضحتها صور تقرير بعثة الأمم المتحدة.

عشنا وشفنا

● كيف كنت تعيشون؟..

لا تسألوا عن كل شيء .. هكذا يجيبك المنهكون والمتعبون من مناضلي الثورة وأبناء قعطبة محسن الحلالي حُرم من إحدى يديه والتي بترتها متفجرات خلفتها الطائرات البريطانية يقول: كنا هنا نعيش كأننا في سجن أو منفى إن لم يكن اسوأ .. وعلى ساريته علم أحمر مرسوم عليه سيف نائم ويحيط بالسيف خمسة نجوم . كان اسمه علم اليمن.

العامل باشا والحاكم الدرويش وصاحب المعالي أحمد السياغي هم وحدهم من كانوا يبهرون الناس بملابسهم في «برانس» بيضاء .. يتمنطقون بالجنابي ويلبسون أوشحة من الخيش الخفيف وعلى رأس كل واحد منهم عمامة بيضاء وعلى أرجلهم أحذية أوروبية «تشيكي» وهذه هي العلامة الخارجية الوحيدة للمعاصرة..

وغفر الإمام كانوا يسمونهم «عساكر» يلبسون أردية من القماش الخشن وهي نوع من الملابس الشبيهة بالفوطة مع بلوزة معتمة يربطون خصورهم بأحزمة الذخيرة عبر الكتف والجنابي خلف الأحزمة .. الأقدام حافية والعيون ملتهبة وحشية كأنها عيون الصقور لا يميزهم سوى أمير الحامية خليل وكان الشخصية العسكرية الوحيدة الذي يلبس حذاء.

أما مدير شرطة سوق قعطبة كان يمارس وظيفته في مقهى جوار بيت الحاكم وفي المقهى يقوم بالمحاكمة والقمع في الحال .. هو الذي يستجوب المتهمين ويعاقبهم إما بالسوط أو بقبضته وذلك حسب الظروف وكل شيء يتم أمام أعين الجمهور المتجمع في السوق المزدهر بتجارة الصابون الحجري والسليط الترتر..

ثورة بسرعة الريح

● وفي صبيحة يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م انتشر نبأ قيام الثورة بسرعة الريح في كل أرجاء الوطن ومنها قعطبة التي كانت تنتظر غارات بريطانية جوية جديدة، وانتظار المدينة ليس عبثاً ،، لكنه تحول مع بزوغ فجر ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م إلى انتظار جميل لحلم تحقيق الثورة.. والرهائن عادوا إلى قبائلهم، وخلال الساعات الأولى لقيام الثورة اليمنية الأم كانت قعطبة تستقبل مجاميع المواطنين والقوافل البشرية من مناطق العود ومريس والضالع والحصين والشعيب وجحاف والأزارق وردفان والذين هبوا للدفاع عن الثورة من غدر اعداء الحياة وتآمر القوى الخارجية والداخلية.

فكانت قعطبة محطة وهمزة وصل لتجمع مناصري الثورة والمدافعين عنها باستقبالهم وتدريبهم وتسليحهم أو نقلهم إلى تعز ومن ثم الاشتراك في أي جبهة يستدعي الواجب الوطني الوصول إليها.ففي قعطبة تشكلت أول سرايا الحرس الوطني خلال الأيام الأولى من الثورة من مناطق المديرية ومدن وارياف الجنوب في واحدية نضال منقطع النظير حيث كانوا يعسكرون في سيلة ريشان «شرق قعطبة» وسيلة قعطبة شمال المدينة وفي مدرسة الفتح وآخر في مكان أسمه «بئر»..

يقول محسن الحلالي أن أول قائد لقعطبة بعد قيام الثورة هو عباس الموشكي تلاه علي السعيدي واللذان توليا مهمة استقبال وتنظيم المنخرطين في صفوف المقاومة دفاعاً عن الثورة السبتمبرية إضافة إلى رواد انتفاضات ١٩٥٦ و١٩٥٨م و١٩٥٩م ضد الاستعمار ممن كانوا متواجدين بقعطبة حيث جسد أبناء الشمال والجنوب تلاحماً منسجماً للدفاع عن مجد سبتمبر في جبال رازح والمحابشة ومناخة والحيمتين وبلاد الروس ونقيل يسلح وحتى صعدة شمالاً.

ومما يتذكره صالح الهيام عند قيام الثورة وزيارة قائد اللواء الشهيد أحمد الكبسي أثناء زيارته للمدرسة محمولاً على الأكتاف حتى مقر قيام الثورة في مبنى يسمى «دار الضيافة» وسط هتافات «ثورة ثورة ياسلال»..

ويتذكر شخصاً اسمه العجاج كان يسمع أنه قائد المنطقة وله أدوار في قيام الثورة والدفاع عنها .. وكذا العقيد عبدالله علي جعفر أحد مناضلي جبهة التحرير وهو من أبناء قرية خوبر..

ويقول الهيام: كانت مدينة قعطبة مركز انطلاق للمدافعين عن ثورة سبتمبر بعد أن يتم تسجيلهم في مقر قيادة الثورة ويتذكر منهم علي بن علي هادي ومحمد بن محمد هادي والشهيد محمد علي اسماعيل النهمي الذي استشهد في حرب السبعين يوما.

"لن ننسى"

● وممن لوبا نداء واجب الدفاع عن ثورة سبتمبر بداية عبر مدينة قعطبة المناضل محمد مانع صالح أحد أبناء مديرية الضالع وقد واجهوا الهجمات العسكرية المضادة للثورة في قعطبة والتي كان يشنها الضابط السياسي البريطاني في الضالع وعملاء بريطانيا في المنطقة وكان المناضل يعمل تحت قيادة الكبسي وعلي بن علي ذي حران بعد إصابته بجروح أثناء مشاركته في الدفاع عن الثورة في جبال المحابشة بحجة ذهب إلى مصر لتلقي العلاج وبعدها عاد إلى تعز ومكث في معسكر خارج تعز مع بقية أفراد جيش التحرير ويضيف: عندما عدنا مع مجاميع المناضلين في الداخل إلى منطقة الضالع كان يأتينا الدعم من مدينة قعطبة وحمر وريشان ولن ننسى لهم مساندتهم ودعمهم.

● العقيد صالح الجحيم من الذين كان لهم شرف المشاركة في العمليات العسكرية المدافعة عن الثورة ضد الهجمات التي كانت تشنها قوات مستعمرة الضالع .. يتذكر: عندما كان تحت قيادة العقيد عبدربه الفلاحي قائد منطقة قعطبة والمساند حسين شرف الكبسي قائد منطقة إب ثم عمل فترة في التنظيم السري لنقل المعلومات إلى قيادة الثورة في المنطقة بقيادة أحمد صالح هجان ومهدي أحمد صالح حمدي وكان يقوم بنقل المعلومات إلى مدير المباحث في جبن - حينذاك - الرائد علي أحمد الظاهري والنقيب عباس العراشي ونائبه الملازم أول صالح الشجاع واستمر في هذه المنطقة ستة أشهر كما يقول.

المقاومة الشعبية

● المعروف أن قعطبة شهدت إقبالاً كبيراً من المواطنين بميليشياتها التي كانت تعرف باسم قوة المقاومة الشعبية حيث انخرطت الجماهير من أبناء مناطق قعطبة والعود ومريس في وحدات صغيرة لتدعيم الوحدات النظامية المحدودة والمبعثرة في بعض المدن الرئيسية والمراكز المهمة .. واعطيت لها بعض التدريبات الأساسية اللازمة لاستخدام الأسلحة التي زودت بها حتى يمكن أن تتوفر مقاومة فعالة في حالة وقوع هجوم ملكي وهذا ما كان يتوقعه جيش الثورة ووحدات المقاومة الشعبية وقد حدثت فعلاً في قعطبة من إتجاه المحميات.

ويؤكد عدد ممن التقينا بهم أن قوة المقاومة الشعبية هذه زودت بالأسلحة التي كانت تصل من الاتحاد السوفيتي السابق خاصة بالبنادق والقنابل اليدوية والمتفجرات وقد استطاعت القوات الجمهورية بدعم قوات الميليشيات الشعبية من الدفاع عن صنعاء وتطهير طريق صنعاء - تعز وذلك خلال الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩٦٣م كما كانت مدينة قعطبة همزة الوصل والإنطلاقة لفصائل من مقاتلي جبهة التحرير للمساعدة في الدفاع عنها ضد الملكيين.

وتشير وثائق الثورة إلى أن فصيلة مكونة مما يزيد عن ٦٠٠ محارب من بين رجال جبهة التحرير عززت قوات الجمهوريين في صنعاء في الدفاع عنها واستشهد وجرح منهم العشرات في أماكن متفرقة حول صنعاء .. إضافة إلى قوافل من رجال البواسل فيما كانت بميليشيات المقاومة الشعبية والتي تم إنشاؤها بعد قيام الثورة مباشرة بإشراف القائد العمري حيث انخرطت الجماهير في وحدات صغيرة لتدعيم الوحدات النظامية المحدودة المبعثرة - حينذاك - واعطيت لها بعض التدريبات الأساسية اللازمة لاستخدام الأسلحة الرئيسية - حينذاك - والتي زودت بها حتى إمكانية توفر مقاومة فعالة .. وكانت قعطبة واحدة من أهم المعسكرات التي جيشت تلك القوة بسبب احتضانها لرواد الانتفاضات التحريرية لأبناء الجنوب ضد قوات الاستعمار والأمراء والسلاطين التابعين لها.

السيارة العميلة

علاقات الجمهورية مع بريطانيا وامراء محمية عدن لم تكن منسجمة سواء بسبب الاحتكاكات على طول حدود ما كان يعرف بالنظام السلاطيني، أو لرفض بريطانيا الاعتراف بالنظام الجديد .. لذا كانت الثورة السبتمبرية معرضة للتآمرات الداخلية والخارجية وطعنها من الخلف في وقت كانت الأمور في صنعاء خارج السيطرة.

وقد تبين أن البريطانيين كانوا يسمحون للقوات العسكرية والدعم المساعدات لفلول الملكيين باجتياز الحدود بحرية تامة.

ومن الحوادث الوقائع التي تبرهن على حقيقة ذلك الدعم والتآمر ،، وما زالت آثارها باقية حتى اليوم هي حادثة الكمين الذي استهدف سيارة انجليزية مشحونة بالأسلحة وهي في طريقها إلى قعطبة مقدمة من الضابط السياسي البريطاني في إمارة الضالع لدعم الملكيين.

أثناء نزولنا لذات المهمة الصحفية وفي قرية لكمة الأشعوب - جنوب مدينة قعطبة - وتتبع حالياً مديرية الحصين - استوقفتنا «السيارة العميلة» والتي لم يبق منها سوى هيكل يستخدمه أحد الأهالي من المناضلين كمربط ومكان خاص بالحمار والبقرة.

إلقاء القبض على سيارة بريطانية تحمل أسلحة للملكيين